عرَّافُ الأندلس..يحيى بن حكم الغزَال..ملامح من حياته وشعره

د.رجب إبراهيم أحمد عوض

أستاذ مساعد بقسم البلاغة والنقد الأدبي

كلية اللغة العربية

جامعة السلطان عبد الحليم معظم شاه الإسلامية العالمية

drragabibrahim@unishams.edu.my

ملخص البحث:

يهدف البحث إلى دراسة شخصية الشاعر الأندلسي،عرَّاف الأندلس يحي بن حكم الغزَال من خلال سيرته وشِعره،وذلك بالإجابة عن سؤالين مهمين هما:من هو؟ وما أهم أغراضه الشعرية وخصائصها الفنية؟وقد اتبع البحث المنهج التكاملي الذي يتكون من عدة مناهج مجتمعة كالتاريخي والوصفي والتحليلي.وقد توصل البحث إلى بعض النتائج التي تكشف أهم سمات شخصيته وخصائص شعره الفنية،ومنها أن الهجاء عنده يهدف إلى إبراز مشكلات المجتمع بهدف إصلاحها،وهو ما يعرف بالنقد المجتمعي.

ABSTRACT

This research aims to study the Andulisian poetry Arraf Yahia Ibn Alhakam Algazzal through his life and poetry and his poetry topics,and its technical characlerstics I follow several methods such as: historicil, descriptive,analatycal.

The research results show his characteristics,and technical values one of them is that the (Hijaa) aims to solve the problem of his community this what we call social criticism.

الكلمات المفتاحية: عراف الأندلس، حياة، شعر، شخصية الشاعر، الغرض الشعري.

مقدمة

كثر اهتمام متتبعي القضايا الأندلسية بشخصية يحي بن الحكم الجياني **الأندلسي** المشهور بالغزال،الذي شغل، مثلما شغل ابن فضلان ، الكثير من مؤرخي الأدب على مدى سنوات طويلة ، سواء أكان هؤلاء المؤرخون من العرب أم من الأوربيين ، ويعود السبب في ذلك الى اختلافهم المتصل على نقاط مهمة في حياة الشاعر العملية الطويلة، وليس في نشاطه الأدبي كشاعر.ولا ينصبُّ اهتمام المهتمين جميعا على جانب واحد...بل إنك تجد اهتمامهم به يتناول جوانب الشعر،وجوانب التاريخ،والشؤون الدبلوماسية المبكرة في القطر الأندلسي.وتجد للغزال حديثا في المشتغلين بالنجوم،كما تجد له أخبارا في الظرفاء.ولا تزال الدراسات الأندلسية المعاصرة تهتم بشخصية الغزال وتميز خصائصها،وتهتم بشعره الباقي من ديوانه الضائع،وبتعيين أسفاره الرسمية في مهمات دبلوماسية،وفي رحلته أو تغريبه إلى بلاد المشرق...إلى غير ذلك من القضايا.لذلك كان هذا البحث الموسوم بـ(عرَّاف الأندلس..يحي بن حكم الغزال..ملامح من حياته وشعره.وانتظم البحث حول هذا الموضوع في مقدمة وتمهيد،وأربعة مباحث،ثم خاتمة متلوة بأهم النتائج التي توصل إليها البحث،مذيلا بأهم المصادر والمراجع التي اعتمد عليها.

التمهيد

بين يدي العرّاف..

يقول عنه إحسان عباس في مقدمة كتاب "محمد صالح البُنداق""يحيى بن حكم الغزال أمير شعراء القرن الثالث الهجري:"لشخصية الغزال (يحيى بن حكم الجياني)سحرها الخاص،لا يملك من يتعرف إليها إلا الإحساس بالإعجاب والمحبة والمعايشة،إنك لتلقى فيه الشاعر الساخر في الموقف العصيب أو الدبلوماسي البارع الخفيف الظل،فتعجب منه،وتلمح في سريرته النقاء والصفاء النفسي فتحبه،وتطلع على مداعباته ومحاوراته فتحس أنك تعيش على مقربة منه،ويبقى السحر الخاص أبعد من أن تفسره علاقات المعايشة والمحبة والإعجاب.ويواصل الدكتور إحسان عباس رسم انطباعاته حيال هذه الشخصية الأندلسية الفريدة،وأنه لا يكاد ينقضي عجبك حين الحديث عنها،فيذكر سببا آخر للإعجاب بها،فيقول:"ثمة شيء يشبه أن يكون سرا مغلقا،حاول الأندلسيون أن يفكوا طلاسمه فزادوه انغلاقا،حيث سمُّوا الغزَال"عراف الأندلس"،وفي المعجم:"ويقال للحازي"عراف وللقناقن عراف وللطبيب عراف...والعراف:الكاه،والحازي هو الذي يقرأالأسرار،ويدّعي علم الغيب،والقناقن:المهندس الذي يعيِّن مواضع الماء تحت الأرض،فأيّ ذلك كان الغزال حين أطلق عليه لقب"عرّاف الأندلس"؟هل كان قارئ أسرار أو طبيبا أو مستنبطا للمياه،أو لم يكن شيئا من ذلك،وإنما كان لغزا لا يفسره إلا كلمة متعددة الدلالات؟

لقد ذهب الأندلسيون في إسرافهم في الإعجاب بهذه الشخصية إلى أن قالوا إن الغزال غاب عنهم غيبة طويلة بمحض اختياره،وذهب إلى المشرق منبع الوحي النبوي،والإلهام الشعري.يقول إحسان عباس:"...وتصور الأندلسيون أن الغزال غاب-رحل متنكرا(مع عدم حاجته إلى ذلك) وغاب عنهم طويلا،وذهب إلى المشرق منبع الوحي النبوي،والإلهام الشعري،وتجوّل هناك بُعيد وفاة أبي نواس،إذ لا يكفي أن يكون الغزال سفيرا لدولته،إلى أقصى الشمال الأوربي وإلى القسطنطينية،وربما إلى غيرهما،بل لابد له من تجوابٍ،يستكشف فيه الدنيا دون مهمات رسمية،ويعود وقد اشتاق إليه إخوانه مثلما اشتاق هو إلى وطنه.ولا يزال حديث الدكتور عباس متصلا مملؤا عجبا محاولا التفسير:"لعل هذه النواة الغيبية التي تعزُّ على التفسير هي التي تطرح على قارئ سيرة الغزال شعورا مستفزا للبحث،لجلاء السر،لاستخراج الغوامض بالإضافة إلى ما يحسه نحو صاحب تلك السيرة من محبة وإعجاب ومعايشة.[1]

المبحث الأول: عصر الشاعر

(1) البنداق:محمد صالح ،يحيى بن الحكم أمير شعراء الأندلس في القرن الثالث الهجري،من مقدمة الكتاب للأستاذ الدكتور إحسان عباس،دار الآفاق الجديدة،بيروت.الطبعة الأولى،١٩٧٩م. ص٩.

وقد أدرك الغزال خمسة من أمراء الدولة المروانية بالأندلس، وهم:

١ -عبد الرحمن بن معاوية (الملقب بالداخل) كان الغزال-حين توفي الداخل سنة ١٧٢- ابن ست عشرة سنة.

٢ -هشام بن عبد الرحمن(تز١٨٠هـ).

٣ -الحكم بن هشام(ت.٢٠٦هـ).

٤ -عبد الرحمن (الأوسط)بن الحكم(ت٢٣٨هـ).

٥ - محمد بن عبد الرحمن(ت٢٧٣هـ).

بدءً بالخليفة عبد الرحمن الداخل الذي استطاع أن يؤسس الدولة الأموية الثانية في الأندلس سنة ١٣٨هـ ، وذلك بعد فراره من بين يدي العباسيين الذين أسقطوا تلك الدولة سنة ١٣٢هـ في المشرق ، وانتهاءً بالخليفة ، محمد بن عبد الرحمن المتوفي سنة ٢٧٣هـ ، مثلما ذكر ذلك الشاعر نفسه في بيت من الشعر له حملته لنا تلك المصادر ، ومن دون أن يأتي فيه على ذكر أسماء أولئك الملوك،فيقول:

أدركت بالمصر ملوكا أربعهْ وخامسا هذا الذي نحن معهْ

إذن،فالغزال ربما عاش أطول عمره في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن،وفي تاريخ الإسلام للذهبي يحكي عن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام أنه:"كان من خيار ملوك بني أميّة، ذا فضل ودين وعلمٍ وفصاحة وإقدام وحزم وعدل. بويع بالإمرة عند موت والده سنة ثمانٍ وثلاثين، فامتدت أيّامه، وبقي في الإمرة خمساً وثلاثين سنة. وأمُّه أمُّ ولد. وقيل: إنّه كان توغّل في بلاد الفرنج، ويبقى في الغزوة العام والعامين، فيقتل وياسر ويسبي. قال بقي بن المخلد المحدِّث: ما رأيت ولا علمت أحداً من الملوك، ولاسمعت أبلغ لفظاً من الأمير محمد، ولا أفصح ولا أعقل منه"[٢]

ومن الواضح من كلام الذهبي أن هذا العصر كان مستقرا سياسيا، فيه فتوحات، وعمارة، وثقافة،فقد أحب الأمير العلماءَ وكرَّمهم.ونلمح هذا أيضا من كلام صاحب الشذرات حيث يقول عن الأمير:" وكانت دولته خمسا وثلاثين سنة وكان فقيها عالما فصيحا مفوها رافعا لعلم الجهاد"[٣].

(٢) الذهبي:شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام.تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري. دار الكتاب العربي. لبنان/ بيروت. ١٤٠٧هـ . ١٩٨٧م. الطبعة الأولى.٢٠/٤٥١.

(٣) الحنبلي: عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري. شذرات الذهب في أخبار من ذهب ،تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط، دار بن كثير ، ١٤٠٦هـ ،دمشق٢/١٦٤.

وتواترت الأخبار المؤكدة لهذ الأخلاق عند الأمير محمد بن عبد الرحمن كما جاء في تاريخ مدينة دمشق:"محبا للعلوم مؤثرا لأهل الحديث عارفا حسن السيرة ولما دخل الأندلس أبو عبد الرحمن بقي بن مخلد بكتاب مصنف ابن أبي بكر بن أبي شيبة وقرىء عليه أنكر جماعة من أهل الرأي ما فيه من الخلاف واستشفعوه وبسطوا العامة عليه ومنعوه من قراءته إلى أن اتصل ذلك بالأمير محمد فاستحضره وإياهم واستحضر الكتاب كله وجعل يتصفحه جزأ جزأ إلى أن أتى على آخره وقد ظنوا أنه يوافقهم في الإنكار عليه ثم قال لخازن الكتب هذا كتاب لا تستغني خزائننا عنه فانظر في نسخة لنا ثم قال لبقي انشر علمك وارو ما عندك من الحديث واجلس للناس ينتفعوا بك أو كما قال قال ونهاهم أن يتعرضوا له"[٤].ويمكن حصر ما تميز به عصر عبد الرحمن الأوسط فيما يلي

:أولاً: ازدهار الحضارة العلمية:

ومن أشهر العلماء في عصر عبد الرحمن الأوسط عباس بن فرناس –رحمه الله– (٢٧٤ هـ=٨٨٧م)، وكنيته أبو القاسم، وهو من أهل قُرْطُبَة، من موالي بني أمية، وبيته في برابر (تاكرنا) كان في عصر الخليفة عبد الرحمن الأوسط (في القرن التاسع للميلاد)، وله أبيات في ابنه محمد بن عبد الرحمن (المتوفى سنة ٢٧٣هـ)، وكان فيلسوفًا شاعرًا، له علم بالفلك.وهو أول مَنِ استنبط في الأندلس صناعة الزجاج من الحجارة، وصنع (الميقاتة) لمعرفة الأوقات، ومَثَّل في بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها، وهو أول طيار اخترق الجوَّ؛ أراد تطيير جثمانه، فكسا نفسه الريش، ومدَّ له جناحين طار بهما في الجوِّ مسافة بعيدة، ثم سقط فتأذَّى في ظهره؛ لأنه لم يعمل له ذنبًا، ولم يَدْرِ أن الطائر إنما يقع على زِمكِّه[٥].ولكنه –برغم هذه المحاولة الرائدة التي فشلت– كان عبقرية هائلة؛ حتى إن الصفدي بَعْدَ كثيرٍ من المدح له يصفه بأنه «له شخص إنسي وفطنة جني».

ثانيًا: ازدهار الحضارة المادية:

اهتمَّ عبد الرحمن الأوسط بالحضارة المادية (العمرانية والاقتصادية وغيرها) اهتمامًا كبيرًا[٦]، فازدهرت حركة التجارة في عهده؛ ومن ثَمَّ كثُرت الأموال[٧]؛ ومن المهم أن نعلم أن بلاد الأندلس لم يكن فيها ما نُسَمِّيه بـ «التسوُّل»، فقد كانت هذه العادة في

(٤) الشافعي:أبو القاسم علي بن الحسن إبن هبة الله بن عبد الله.تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل.تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري. دار الفكر.بيروت ١٩٩٥. ٣٥٦/١٠.

(٥) المقري: أحمد بن محمد.نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب.دار الكتب.بيروت.١٩٩٥م،٣٧٤/٣، وزِمكّ الطائر: ذيله وذنبه. ابن منظور: لسان العرب، مادة زمك.

(٦) المقري: نفح الطيب، ٣٤٧/١.

بعض البلاد الإسلامية الأخرى؛ لكنها لم تُعرَف في بلاد الأندلس[٨].كذلك تقدَّمت وسائل الريِّ في عهده بشكل كبير، وتمَّ رصف الشوارع وإنارتها ليلاً في هذا العمق القديم جدًّا في التاريخ، في الوقت الذي كانت فيه أوربا تعيش في جهلٍ وظلام دامس، كما أقام القصور المختلفة والحدائق الغنَّاء، وتوسَّع في ناحية المعمار حتى كانت المباني الأندلسية آية في المعمار في عهده –رحمه الله[٩].

ثالثًا: وقف غزوات النورمان

النورمان هم أهل إسكندنافيا، وهي بلاد تضمُّ الدانمارك والنرويج وفنلندا والسويد، وقد كانت هذه البلاد تعيش في همجية مطلقة؛ فقد كانوا يعيشون على ما يُسَمَّى بحرب العصابات، فقاموا بغزوات عُرِفَت باسم «غزوات الفايكنج»، وهي غزوات إغارة على أماكن متفرِّقة من بلاد العالم، ليس لها من هَمٍّ إلاَّ جمع المال وهَدْم الديار.

وفي عهد عبد الرحمن الأوسط سنة (٢٣٠هـ=٨٤٥م) هجمت هذه القبائل على إِشْبِيلِيَة من طريق البحر في أربع وخمسين سفينة، ودخلوها فأفسدوا فسادًا كبيرًا، ودمَّروا إِشْبِيلِيَة تمامًا، ونهبوا ثرواتها، وهتكوا أعراضها، ثم تركوها إلى شَذُونة وأَلمِريَّة ومُرْسِيَة وغيرها من البلاد فأشاعوا الرعب، وعمَّ الفزع[١٠]، وهذه هي طبيعة الحروب المادية بصفة عامَّة، وشتَّان بين المسلمين في فتحهم للبلاد وبين غيرهم في معاركهم!

فلمَّا علم عبد الرحمن الأوسط –رحمه الله– بهذا الأمر ما كان منه إلاَّ أن جهَّز جيشه وأعدَّ عُدَّته، وخلال أكثر من مائة يوم كاملة دارت بينه وبينهم معارك ضارية، أُغرِقَت خلالها خمسٌ وثلاثون سفينةً للفايكنج، ومنَّ الله على المسلمين بالنصر، وعاد النورمان إلى بلادهم خاسئين خاسرين[١١].

ولم يجنح عبد الرحمن الأوسط بعدها إلى الدَّعَة أو الخمول، وإنما عمل على تفادي تلك الأخطاء التي كانت سببًا في دخول الفايكنج إلى بلاده فقام بما يلي:

---

(٧) ابن عذاري:أبو عبد الله محمد المرَّاكشي. البيان المغرب في حلى أخبار الأندلس والمغرب،تحقيق كولاس وليفي بروفنسال ،دار الثقافة، بيروت،الطبعة الثالثة،١٩٨٣م،٢/٩١.

(٨) قال المقري: «وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق في الدروزة التي تكسل عن الكد، وتحوج الوجوه للطلب في الأسواق، فمستقبحة عندهم إلى نهاية، وإذا رأوا شخصًا صحيحًا قادرًا على الخدمة يطلب سَبُّوه وأهانوه، فضلاً عن أن يتصدقوا عليه؛ فلا تجد بالأندلس سائلاً إلاَّ أن يكون صاحب عذر». نفح الطيب، ١/٢٢٠، والفقراء هنا هم الصوفية.

(٩) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٩١، والمقري: نفح الطيب، ١/٣٤٧.

(١٠) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٨٧.

(١١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٨٧.

أولاً: رأى أن إِشْبِيلِيَة تقع على نهر الوادي الكبير الذي يصبُّ في المحيط الأطلنطي، ومن السهولة جدًّا أن تدخل سفن الفايكنج أو غيرها من المحيط الأطلنطي إلى إِشْبِيلِيَة، فقام بإنشاء سور ضخم حول إِشْبِيلِيَة، وحصَّنها تحصينًا منيعًا، ظلَّت بعده من أحصن حصون الأندلس بصفة عامة[١٢].

ثانيًا: لم يكتفِ بذلك بل قام –أيضًا– بإنشاء أسطولين قويين؛ أحدهما في الأطلسي والآخر في البحر الأبيض المتوسط؛ وذلك حتى يُدافع عن كل سواحل الأندلس، فكانت هذه الأساطيل تجوب البحار وتصل إلى أعلى حدود الأندلس في الشمال عند مملكة ليون، وتصل في البحر الأبيض المتوسط حتى إيطاليا.

وكان من نتيجة ذلك أنه فتح جزر البليار للمرة الثانية[١٣]، وكذلك كان من نتيجة هزيمة الفايكنج في هذه الموقعة قدوم سفارة من الدانمارك محمَّلة بالهدايا تطلب وُدَّ المسلمين، وتطلب المعاهدة معهم.

وبلغت البلاد من القوة في عهد الأمير عبد الرحمن هذا أن جاءته الهدايا من القسطنطينية أيضًا.

المبحث الثاني جياته وإشكالية المولد

اسمه،وكنيته، ولقبه:

هو يحي بن حكم البكري الجياني وهذه النسبة إلى منطقة جيَّان ،وهي مدينة جميلة بالأندلس،وهي كثيرة ، وصفها أبو عبدالله الحميري في كتابه فقال: "مدينة بالأندلس بينها وبين بياسة ستون ميلا كلها يربى فيها دود ، ولها زائد على ثلاثة آلاف قرية ، كثيرة اللحوم والعسل، رخيصة الأسعار،الخصب وعلى ميل منها ، وغلات القمح والشعير والباقلاء وسائر الحبوب، وبها جنات وبساتين ومزارع ،الحرير، وبها جنات وبساتين ومزارع وغلات القمح والشعير والباقلى وسائر الحبوب، وعلى ميل منها نهر بلون، وهو نهر كبير عليه أرحاء كثيرة جداً، وبها مسجد جامع وعلماء جلة .[١٤]وذكر له عمر كحالة في معجم المؤلفين كنية فقال:"أبو بكر".[١٥]ويذكر المؤرخون في سبب تلقيبه بـ (الغزَال)أنه كان جميلا وسيما،فيقول المؤرخ تمام بن علقمة:" كان الغزال في اكتهاله

(١٢)الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢٦١/٨، والصفدي: الوافي بالوفيات، ٨٤/١٨، والحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص٢٠

(١٣)انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٨٩/٢، وكنا قد ذكرنا أن الذي فتحها للمرة الأولى كان موسى بن نصير ؛ وذلك قبل فتح الأندلس سنة ٩١هـ=٧١٠م، ثم سقطت في أيدي النصارى في عهد الولاة الثاني حين انحدر حال المسلمين آنذاك، ثم سيطر عليها الفايكنج، وهنا وفي سنة ٢٣٤هـ=٨٤٩م تم فتحها ثانية.

(١٤) الحميري: أبو عبدالله محمد بن عبدالمنعم،الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق:إحسام عباس،مؤسسة ناصر، بيروت،١٩٦٠م، ص ٦٨٩٢ .

(١٥) كحالة،عمر رضا،معجم المؤلفين،مؤسسة الرسالة،ط١٤١٤،١هـ،١٩٩٣م. ١٩٣/١٣.

وسيما،وكان في صباه جميلا،ولذلك سُمِّي بالغزَال.ويبدو أنه ظل على هذا الحسن؛حيث نقل ابن عذاري في "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" أن الغزال دخل يوما على الأمير عبد الرحمن بن الحكم،فقال له الأمير:جاء الغزال بحسنه وجماله" فقال له الوزير :أجزْ ما بدأ به الأمير.فقال له الغزال:

قـــالَ الأَمـــيرُ مُـــداعِباً بِمَقالِـــهِ جـــاءَ الغَـــزالُ بِحُســـنِهِ وَجَمالِـــهِ!

أَيـــنَ الجَمـــالُ مِـــن اِمـــرِئٍ أَربى عَلـــى مُتَعَـــدِّدِ التَسـعينَ مِـــن أَحوالِـــهِ

وَهَـــل الجَمـــالُ لَـــهُ الجَمـــالُ مِـــن اِمـــرِئٍ أَلقـــاهُ ريـــبُ الـــدَهرِ في أَغلالِـــهِ

وَأَعـــادَهُ مِـــن بَعـــدِ جِدَّتِـــهِ بِلـــىً وَأَحـــالَ رَونَـــقَ حالِـــهِ عـــن حالِـــهِ[١٦]

وقد لقب بهذا اللقب منذ صباه؛ لوسامته وجماله،وأناقته،وقيل في غمرة رجولته،وقيل وهو في حدود السبعين استنادا إلى قصيدة أنشدها أمير الأندلس وفيها"حسنه وجماله" وإن هذا اللقب قد أطلقه عليه تودداً وتحببا صديقه ومولاه الأمير عبد الرحمن،وبه اشتهر.[١٧]

نشأته،ومولده،ووفاته:هو من حيث المحتد ينتسب الى قبيلة بكر العربية المعروفة ، مثلما ينتسب كذلك الى مدينة جيان الأندلسية لسكن أسرته بها على ما يبدو،وليس لأنه ولد فيها،فالروايات المتوفرة عنه لم تقطع بمكان ولادته ، لكنها أشارت الى أنه نشأ في مدينة قرطبة ، حاضرة الأندلس ،وعاصمتها التي قطعت شأوا بعيد في الازدهار والتطور على أيام الشاعر،وفي زمن الأمير الأموي،عبد الرحمن الثاني،الذي امتد حكمه من سنة ٢٠٦هـ والى سنة ٢٣٨هـ.والجياني،نسبة إلى مدينة جيان؛وكانت جيان مركزا كبيرا في موسطة الأندلس؛وقال ابن سعيد في صفتها:مملكةجليلة بموسطة الأندلس،معروفة بالمحارث الأخشاب،وهي بين غرناطة وطليطلة ومُرسية.[١٨]

(١٦)الغزال:يحيى بن حكم.ديوانه،جمعه،وحققه،وشرحه د.محمد رضوان الداية.دار الفكر المعاصر،بيروت،لبنان،دار الفكر،سورية،دمشق،١٩٩٦م.ص٧٠.وانظره في "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" ص١٧٩.

(١٧)البنداق:يحيى بن الحكم أمير شعراء القرن الثالث الهجري.ص١٧.

(١٨)ابن سعيد: أبو الحسن علي بن موسى المغربي.المغرب في حلى المغرب،تحقيق د.شوقي ضيف.دار المعارف.ط١٩٥٥،١م.٢/٤٩.

وذكر الحميدي في ترجمته له ناسبا تاريخ ولادته ووفاته إلى حبيب بن أحمد:" إن مولده سنة ست وخمسين ومائة، في إمارة عبد الرحمن بن معاوية، وعاش باقي إمارته، وإمارة هشام وإمارة الحكم وإمارة عبد الرحمن، ومات في إمارة الأمير محمد سنة خمسين ومائتين، وهو ابن أربع وتسعين سنة.[١٩]

إشكالية المولد والوفاة

لكنَّ تحديد تاريخ الوفاة بهذا الشكل يعني أن الرجل عاش أربعا وتسعين عاما،لكننا نجد في شعره ما يخالف ذلك، حيث يقول:

أَلَســـتَ تـــرى أَنَّ الزَمـــانَ طَـــواني وَبَـــدَّلَ خَلقـــي كُلَّـــهُ وَبَـــراني؟!

تَحَيَّفَـــني عُضـــواً فَعُضـــواً فَلَـــم يَـــدَع سِـــوى اِسمـــي صَـــحيحاً وَحـــدَهُ وَلِســـاني

وَلَـــو كانَـــت الأَسمـــاءُ يَـــدخُلُها البِلـــى لَقَـــد بَلِـــيَ اِسمـــي لِامتِـــدادِ زَمـــاني

وَمـــا لِيَ لا أَبلـــى لِتِســـعينَ حجَّـــةً وَسَـــبعٍ أَتَـــت مِـــن بَعـــدِها سَـــنَتانِ[٢٠]

وحسب رواية الأبيات، ونسبتها إليه، فإنه بهذا ربما قد عاش مائة سنة فقد ولد سنة ١٥٠هـ، وتوفي سنة ٢٥٠هـ، وتاريخ الوفاة محل اتفاق،وعلى هذا رأي محمد صالح البُنداق في كتابه"يحيى بن الحكم الغزال..أمير شعراء الأندلس في القرن الثالث الهجري،وسفير أمير الأندلس.[٢١]وذهب ابن دحية الكلبي إلى هذا في ختام ترجمته للغزال فيقول:"ومن الحق أن نختم ذكره بما فال

(١٩)الحميدي:أبو عبد الله بن أبي نصر الأندلسي. جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس.تحقيق إبراهيم الأبياري.دار الكتاب المصري.١٩٨٩م. ص ٣٧٥.

(٢٠)يحيى بن حكم الغزال،ديوانه ص٨٠.

(٢١)البنداق:يحيى بن الحكم الغزال، ص٢١.

في الزهد،فإنه –عفا الله عنا وعنه– عُمَّر ما قارب مئة عام، وقيل: أربى عليها، ثم ذكر الأبيات السالفة.[٢٢]ويقول الأستاذ سهر العامري في اختلاف الروايات الواردة بشأن تحديد عمر الغزال،وأقول به:[٢٣]"وقد أشارت بعض الروايات، وبشكل لا لبس فيه،الى أن الشاعر،الغزال، ولد سنة ١٥٦هـ ، وتوفي في حدود سنة ٢٥٠هـ[٢٤] ، وبهذا يكون هو قد عاش أربعا وتسعين سنة رغم أن الشاعر،مع ذلك، قد جعل من عمره تسعا وتسعين سنة في قوله :

وَما لِيَ لا أَبلى لِتِسعينَ حجَّةً وَسَبعٍ أَتَت مِن بَعدِها سَنَتانِ [٢٥] (

ولكن هذا البيت وصل لنا على رواية أخرى يصير معها عمر الشاعر تسعا وسبعين سنة :

وَما لِيَ لا أَبلى لِسبعينَ حجَّةً وَسَبعٍ أَتَت مِن بَعدِها سَنَتانِ

وعلى هذا فإن رواية (السبعين سنة)، التي جعلت عمر الشاعر تسعا وسبعين سنة،تتطابق مع كلمة الإدراك التي تعني اللحوق في المعجم،والتي جاءت في بيت الشاعر:(أدركت بالمصر....) المار الذكر ، وتتطابق مع ما نقله ابن دحية عن مؤرخ عاصر الشاعر ، هو تمام بن علقمة في قوله: (ومشى الى بلاد المجوس،وهو قد شارف الخمسين، وقد خطه الشيب"[٢٦] وعلى هذا ستكون سنة ولادة الشاعر بعد أن نطرح التسع والسبعين سنة من تاريخ سنة وفاته هي ١٧١هـ بدلا من سنة ١٥٦هـ ، والنتيجة هذه لا تتناقض مع قول الشاعر :

أدركت بالمصر ملوكا أربعهْ وخامسا هذا الذي نحن معهْ

وذلك لأن الأمير عبد الرحمن الداخل قد توفى سنة ١٧٢هـ ، أي قبل ولادة الشاعر بسنة ويزيد ،ويبدو أن قصر فترة معاصرته

([٢٢])ابن دحية:أبو الخطاب عمر بن الحسن الكلبي.المطرب من أشعار أهل المغرب٤تحقيق إبراهيم الأبياري وآخرين.دار العلم.بيروت.١٩٥٥م.٤/١٥١.

([٢٣])سهر العامري،رحلة الغزال إلى الدنمارك–مجلة الحوار المتمدن، ،العدد٢٠٩٢–التاريخ٢٠/١١/٢٠٠٧.

([٢٤]) ديوان يحي بن حكم الغزال ص٦.

([٢٥]) السابق ص ٨٠.

([٢٦]) ابن دحية الكلبي:المطرب من أشعار أهل المغرب ص١٤٣.

للأمير المذكور هي التي حدت بالشاعر الى استخدام الفعل (أدرك) بمعنى لحق في بيته المار، بدلا من كلمة أخرى كـ (عاصر) ، أو (عايش) كما أننا سنحصل على نتيجة أخرى ، وفقا لتاريخ الولادة في سنة ١٧١هـ ، وهي أن عمر الشاعر كان ، حين رحل في سفارته الى الدنمارك ، تسعا وخمسين سنة وذلك لأنه رحل الى تلك الدولة سنة ٢٣٠هـ بإجماع الكثير من المصادر ، مثلما أسلفت ، وهذا يتطابق مع استخدام تمام بن علقمة لكلمة (شارف) أي زاد على الخمسين سنة ، مثلما نقل ابن دحية عنه ، والنتيجتان هاتان تجعلان عمر الشاعر في حدود الثمانين سنة ، وطول العمر هذا يؤيده قول جامع ديوان الشاعر وشارحه في عدم ملاحظته لأي نشاط مسجل للشاعر زمن الأمير عبد الرحمن الداخل ، ولا زمن ابنه الأمير هشام ولكن هذا النشاط عرف عن الشاعر إبان ولاية الأمير ، الحكم بن هشام ، الذي حكم بلاد الأندلس ما بين ١٨٠هـ – ٢٠٦هـ .[٢٧] وإذا ما أخذنا برواية البيت التي تجعل من عمر الشاعر الغزال تسعا وتسعين سنة :

وَما لِيَ لا أَبلى لِسبعينَ حجَّةً وَسَبعٍ أَتَت مِن بَعدِها سَنَتانِ

لوجدنا أنها تتناقض مع الرواية التي حددت عمره بأربع وتسعين سنة ، أي أنه ولد وعاش ما بين ١٥٦هـ – ٢٥٠هـ ، كما أنها تتناقض مع رواية ابن دحية التي تقول : (فإنه – عفا الله عنا وعنه – عمر حتى قارب مئة عام ، وقيل : قد أربى عليها)[٢٨] ، تلك الرواية التي تجعل من سنة ولادة الشاعر هي سنة ١٥٠هـ،وذلك لأن سنة وفاة الشاعر المتفق عليها هي ٢٥٠هـ.

وفوق هذا وذلك فإن رواية الأربع والتسعين أو التسع والتسعين أو المئة تجعل من عمر الشاعر الغزال حين رحل الى الدنمارك في سفارته تلك،٧٤سنة،٧٩ سنة،٨٠ سنة على التوالي،وذلك لأن تاريخ الرحيل ذاك،قد حدث،مثلما تجمع عليه أكثر الروايات، في سنة ٢٣٠هـ أي قبل موته بعشرين سنة ، وعلى أساس ما تقدم فإن هناك قدرا كبيرا من الشكوك يحيط بالروايات الثلاثة تلك ، وتدفع المرء الى عدم الوثوق بها ،لأنها تجعل من رجل شيخ تقدم به العمر سفيرا يكابد أخطار الترحال ، وهول البحار.[٢٩]

(٢٧) انظر مقدمة ديوان يحي بن حكيم الغزال ص ٧.

(٢٨)ابن دحية الكلبي:المطرب من أشعار أهل المغرب١٥١/٤٠

(٢٩)انظر المقال كاملا" رحلة الغزال إلى الدنمارك" مجلة الحوار المتمدن،سهر العامري،العدد٢٠٩٢–التاريخ٢٠٠٧/١١/٢٠.

المبحث الثالث منزلته،وصفاته،ورحلاته:

ترجم له الحميدي في كتابه جذوة المقتبس ترجمة عالم بقدره، خبير بمكانته فقال:"يحي بن حكم المعروف بالغزال (بتخفيف الزاي)، رئيس، كثير القول، مطبوع النظم في الحكم والجد والهزل، وهو مع ذلك جليل في نفسه وعلمه ومنزلته عند أمراء بلده ..."[٣٠] و قال فيه ابن دحية الكلبي في المطرب:" يَحيى بنُ حَكَم الغَزَال،القاعد على كيوان، شاعر ذلك الأوان؛ وقد اثبت له من قوله ما يشهد بإبداعه، وحسن تصرفه في المعاني واختراعه، وطول يده في الأدب وامتداد باعه".[٣١]

صفاته وأخلاقه:

ويتصف الغزال بالحكمة وجودة الرأي وحسن التصرف؛لذلك كان حريا أن يكون سفيرا لدولته وأميره عبد الرحمن مرة إلى القسطنطينية،وأخرى إلى الدنمارك،يقول ابن دحية الكلبي في المطرب:" ولما وفَد على السّلطان عبد الرحمن رُسلُ مَلكِ المجوس تطلبُ الصلح بعد خروجهم من إشبيلية، وإيقاعِهم بجبهاتها ثم هزيمَتِهم بها، وقَتْل قائد الأسطول فيها، رأى أن يراجعهم بقبول ذلك، فأمر الغَزَال أن يمشي في رسالته مع رسُل ملكهم، لما كان الغزال عليه من حدة الخاطر، وبديهة الرأي، وحسن الجواب والنجدة والإقدام والدخول والخروج من كل باب"[٣٢].ولا شك ان هذا الاختيار يعكس الصفات الأساسية والرئيسة في كل من يُعيَّن سفيرا عامة،وفي يحي بن حكم الغزال خاصة،تلكم هي صفات الذكاء،والألمعية،وحضور البديهة،ولعل هذا هو السر في قربه من البيت الأموي.

(٣٠) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميدي.الدار المصرية للتأليف والترجمة.ص ٣٧٤.

(٣١)ابن دحية الكلبي:المطرب من أشعار أهل المغرب ص ١٣٣.

(٣٢)ابن دحية الكلبي:المطرب من أشعار أهل المغرب ص١٣٨/١٣٩.

يقول عنه إحسان عباس في مقدمة كتاب محمد صالح البنداق:"... إنك لتلقى فيه الشاعر الساخر في الموقف العصيب،أو الدبلوماسي البارع الخفيف الظل،فتعجب به،وتلمح في سريرته النقاء والصفاء النفسي فتحبه،وتطلع على مداعباته ومحاوراته فتحس أنك تعيش على مقربة منه....[٣٣]

ثقافته ورحلاته:

جاء في أخبار الشاعر أن أول رحلة له كانت الى المشرق العربي ، والى العاصمة بغداد على وجه التحديد ، وقد ذكر أن أسباب هذا الرحيل هو هجوه لأبي الحسن ، علي بن نافع ، الملقب بـ (زرياب) ، وذلك بعد وصول زرياب الى قرطبة من بغداد في الأيام الأولى من حكم الأمير عبد الرحمن الثاني الذي حكم الأندلس بعد وفاة أبيه ، الحكم ، سنة ٢٠٦ للهجرة ، وعلى إثر هذا الهجاء أمر الأمير بنفي الشاعر عن الأندلس ، ولكنه تراجع عن قراره هذا بعد أن توسط للشاعر عنده أكابر دولته ، فعفا عنه ، ومع ذلك لم يطب للغزال المقام في قرطبة ، فرحل الى العراق ، وقد حُدد تاريخ الرحيل هذا بعد موت الشاعر أبي نواس ، الحسن بن هاني ، بمدة يسيرة ، مثلما هو عند ابن دحية.[٣٤] ويقول عنه ابن دحيه في مطربه: (وأقام الغزال في رحلته تلك مدة يجول في ديار المشرق، وما انفك في كل قطر منه من غريبة يطلعها، وطريقة يبتدعها ثم أنه حن الى مسقط رأسه ، وانصرف الى الأندلس ، وهو قد ترك شرب الخمر ، وتزهد في الشعر ، وشارف الستين ، وركب النهج المبين.

ومثلما رحل يحيى بن حكم الغزال الى بغداد ، وأقطار المشرق الأخرى ، فقد رحل الى عاصمة الدولة البيزنطينية ، القسطنطينية ، كذلك ، ولكن رحيله هذا كان بدافع سياسي محض ، تمثل بشغله لمنصب سفير في تلك الدولة هذه المرة ، وقد حدثت هذه السفارة سنة ٢٢٥هـ=٨٤٠م ، وبعيد معركة عمورية التي وقعت سنة ٢٢٣هـ ، بسنتين ، وكانت بيزنطة بعد هزيمتها في تلك

(٣٣)يحيى بن الحكم أمير شعراء الأندلس في القرن الثالث الهجري،من مقدمة الكتاب للأستاذ الدكتور إحسان عباس،دار الآفاق الجديدة،بيروت.
(٣٤) ابن دحية الكلبي:المطرب من أشعار أهل المغرب ص١٤٨،

المعركة أمام الجيش العربي بقيادة الخليفة المعتصم (١٧) قد أرادت التقرب من الدولة الأموية في الأندلس على عهد أميرها ، عبد الرحمن الثاني ، وذلك نتيجة للضغوط القوية التي كانت تمارس بحقها من قبل بغداد ، عاصمة الخلافة زمن الدولة العباسية.

المبحث الرابع:أغراضه الشعرية،وخصائصها الفنية.

الشعر عند يحيى الغزال تعبير عن موقف،أو رأي يقال،أو تصوير للحظة،أو ومضة من ومضات الحياة،ومن هنا كان في شعره حماسة ذاتية،انعكست على شعره الذي امتاز بالتدفق،وصدق العاطفة،والطبع،والبعد عن التكلف والصنعة،فشعره ذو إشارات دالة،وكلمات قلبية صادقة،وجاء شعره هينا لينا،عليه ميزة الفن القصصي والعمق في آن واحد.ويضم ديوان الغزال عدة أغراض شعرية،نظم فيها مثل الغزل،والوصف،والمدح، والفخر،والاعتذار،والهجاء(الهجاء المجتمعي) ةغير ذلك من الأغراض.وسأكتفي بالحديث الموجز عن بعضها.

١ - **الغزل:** لم يكن الغزال بدعا من الأمر في هذا الغرض الشعري القديم،فقد شاع عنده كما شاع عند شعراء قبله، ونظم فيه قصائد مستقلة،أو ضمنه بعضها،وأحيانا يستهل به قصائده سيرا على خطى السابقين.

والذي لا ريب فيه هو أن الغزال بحكم بشريته وشاعريته معًا قد أخذت بتلابيب قلبه امرأة ما،وحركت مشاعره يوما ما،غير أننا نجد في ثنايا ديوانه أسماء عدة لغير واحدة على عادة الشعراء العرب الذين كانوا لا يصرِّحون بأسماء محبوباتهم لاعتبارات قبلية وأخرى أخلاقية.

فذكر خمس نساء في ديوانه:(نود،لعوب،سلمى،تيودرا زوجة الإمبراطور البيزنطي).لقد امتاز شعر الغزل عنده بالرِّقة التي تشهد فيها دقة الإحساس بالجمال،والمواقف الحادة الجادة.. وتشعر بدخول عنصر الزمن، فتتبلور مبالاة أيام الشباب،وفلة احترازه على شكل حكمة بسيطة،صادرة عن تجارب الحياة. ويتجلى ذلك حينما وقف الغزال أمام جمال الملكة "نود" ملكة الدانمارك موقف المعجب فدعاه ذلك إلى التغزل فيها،فقد كثر لقائه بها في أثناء زيارته للدانمارك بوصفه سفيرا،وكانت تسأله عن المسلمين وأحوالهم وعاداتهم ونسائهم،وكان لا يجد حرجا من إجابتها والرد عليها بلباقة وذكاء لا يخلوان من ظرف ولطف، وفي مرة،وبينما هما

يتجاذبان الحديث إذ سألته عن سنه،الذي كان وقتئذ قرابة الخمسين،وأثر الشيبفي رأسه،فأجابها أن سنه عشرون عاما.فلما ترجم إليها الترجمان ما قاله الغزال قالت في عجب:سنه عشرون وبه شيب؟فرد مبتسما:ألم تر قط مهرا وهو أشهب؟أي اختلط شعره الأبيض بالأسود.فلما رأت جوابه حارت وضحكت،وأنشد هو في ذلك:

كُلِّفــــتَ يـــا قَلـــبي هَـــوىً مُتعِبـــاً غالَبـــتَ مِنـــهُ الضَـــيغَمَ الأَغلَبـــا

إِنّي تَعَلَّقـــــــــــتُ مَجوسِـــــــــيَّةً تَـــأبى لِشَـــمسِ الحُســـنِ أَن تَغرُبـــا

أَقصـــى بِـــلادِ اللَـــهِ في حَيـــثُ لا يُلفـــي إِلَيـــهِ ذاهِـــبٌ مَـــذهَبا

يـــا تـــودُ يـــا رودَ الشَـــبابِ الَّـــتي تُطلِـــعُ مِـــن أَزرارِهـــا الكَواكِبـــا

يـــا بِـــأَبي الشَـــخصُ الَّـــذي لا أَرى أَحلـــى عَلـــى قَلـــبي وَلا أَعـــذَبا

أَن قُلـــتُ يَومـــاً إِنَّ عَيـــني رَأَت مُشـــبِهَهُ لَم أَعـــدُ أَن أَكـــذِبا

قالَـــت أَرى فَودَيـــهِ قَـــد نَـــوَّرا دُعابَـــةٌ توجِـــبُ أَن أَدعَبـــا

قُلـــتُ لَهـــا مـــا بالُـــهُ إِنَّـــهُ قَـــد يُنـــتَجُ المِهـــرُ كَـــذا أَشـــهَبا

فَاستَضـــحَكَت عُجبـــاً بِقَـــولي لَهـــا وَإِنَّمـــا قُلـــتُ لِكـــي تَعجَبـــا

وتبرز في هذه الأبيات الأدوات التصويرية التي اعتمد عليها الغزال في تقريب مضمون فكرته،حيث إن هذه الأدوات البلاغية أنما هي ملامح تكسب الصورة بهاء ورونقا،وجاذبية؛لأنها تقرِّب المضمون المحدد من لدنه إلى نفسية المتلقي ومداركه ،فالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز أدوات بواسطتها أضفى الغزال أبعادا تكاد تكون منسجمة مع هواجسه وأحاسيسه،على الرغم من

كونها تقرب ذات الصورة وحيويتها.فحينما صيَّر الغزال التشبيه معادلا لذات الصورة الحقيقية كان يبغي قيمة المشبه به أكثر من ذات الصورة، فهو يعبر عن مدى الحب العميق الذي ملأ قلبه عندما رأى هذه الملكة الجميلة،وصور هذا الحب بالأسد الغضنفر الذي يغلب من تعرض له،مع بيان أن محبوبته مجوسية غلى غير دين الإسلام،وهي شمس حسن وجمال.كما عرض لحديثه معها،وذكر قولها في شيبه،وكيف برر لها ذلك بأن الشيب في رأسه مثل النور في الظلام..كل هذا في لباقة حديث،وحسن منطق، لم يكن فصده الكذب،وإنما لتعجب هي، وقد كان!

وإن تعجب من غزله فعجب قوله:

بِحَــقِّ الهَــوى أَقــرِ السَــلامَ عَلــى الَّــتي أَهــيمُ بِهــا عِشــقاً إِلى يَــومِ مَحشَــري

لَــئِن غِبــتُ عَنهــا فَــالهَوى غَــيرُ غائِــبٍ مُقــيمٌ بِقَلــبِ الهــائِمِ المُتَفَطِّــرِ

لقد هام بها هياما متصلا حياة وموتا،ودنيا وآخرة،مقيم على الحب إلى يوم القيامة،وهو إن تنآى عنها جسدا،فقد اتصل بها روحا،فهي مقيمة في قلبه لا تبرحه،وهواها مقيم غير ظاعن،كيف لا،وهو الهائم المحب؟!

٢-**الوصف**:لا شك في أن خيال الغزال يكمن في جَلِي الوهم الذي يراود المتلقي لتحديد أبعاد صوره من خلال أدوات يدركها المبدع والمتلقي معا. فإننا لنقف مأخوذين بجمال وصفه لحالة الشيب التي اعترته فيقول:

ما الشَيبُ عِندي وَالخِضابُ لِواصفٍ إِلّا كَشَــمسٍ جُلِّلَــت بِضَــبابِ

تَخفــى قَلــيلاً ثُمَّ يَقشَــعُها الصَــبا فَيَصــيرُ مــا سُــتِرَت بِــهِ لِــذَهابِ[٣٥]

(٣٥) يحي بن حكم الغزال:ديوانه ص٢٩.

فالشيب عنده علامة نضج،ودليل رشد لا يمكن أن يخفيه خضاب،كما أن الأمر يعكس نفسية الشاعر الرافضة للتزييف والتضليل،وإن كان الأمر يتعلق بشيب وخضاب،فالقضية قضية وضوح في كل شيء،والمصارحة في أدق التفاصيل،وإن رآها غيره غير مهمة:

وما معنى الخضاب وأنت تدري بأن العيب من تحت الخضابِ[٣٦]

لقد اتخذ الغزال من الشيب موقفا ساميا جليلا،على النقيض مما اتخذه شعراء سابقون عليه،ومعاصرون له،فتصويره للمشيب بالشمس،وللخضاب الذي يغطي الشمس،ثم يأذن الهواء بزوال السحب،وتظهر الشمس هو تصوير رائع حي،وهو مقنع بعدم ضرورة الخضاب لمن هاجمه الشيب.وهي صورة مباشرة تثبت المعنى بطريقة محسوسة.

وتتجلَّى عبقرية الغزال في وصفه، ونقل إحساساته لا سيما الدينية،حين يستمد وصفه وأركان صوره من مورثات دينية،ويعكس هذا ثقافته،وفطنته،وذكاءه،ويجعل صوره تتسم بالجدة والابتكار[٣٧] يقول:

أَصبَحتُ وَاللَهِ مَحسوداً عَلى أمد مِنَ الحَياةِ قَصيرٍ غَير مُمتَدِّ

حَتّى بَقيتُ بِحَمدِ اللَهِ في خَلَفٍ كَأَنَّني بَينَهُم مِن خَشيَةٍ وَحدي

وَما أُفارِقُ يَوماً مَن أُفارِقُهُ إلاَّ حسبتُ فراقي آخر العهدِ

اِنظُر إِلَيَّ إِذا أُدرِجتُ في كَفَني وَانظُر إِلَيَّ إِذا أُدرِجتُ في اللَحدِ

وَاقعُد قَليلاً وَعايِن مَن يُقيمُ مَعي مِمَّن يُشَيِّعُ نَعشي مِن ذَوي وُدّي

هَيهاتَ كُلُّهُم في شَأنِهِ لعِبٌ يَرمي التُرابَ وَيَحثوهُ عَلى خَدّي[٣٨]

ونقف أمام وصف آخر،نقف أمام وصفه اللون الأسود،فهو لون مرفوض نفسيا في أخيلة الشعراء،كذلك فهو دائم الالتصاق والافتران بالأبعاد النفسية المضطربة مثل الشقاء،زالألم،والفراق،والبؤس.لكن الغزال كان له رأي آخر حين لبس ثوبا

(٣٦) البيت لمصطفى صادق الرافعي.

(٣٧) عمر الدقاق،ملامح الشعر الأندلسي، دار الشرق العربي،بيروت،ص ٦١.بتصرف.

(٣٨)يحي بن حكم الغزال:ديوانه ص٤٦.

أسود،فاستوحى لون ثوب القس حيث أكسبت الصورة ملمحا جماليا تمثل في رسمها قريبة من ذهنية المتلقي،ومنحت المعنى دلالة مستقرة في واقع الحياة.يقول:

ولِـــبسٍ كثـــوبِ القـــسِّ جبـــتُ ســـوادَه علـــى ظهـــرِ غريـــبِ القمـــيصِ نـــآدِ[٣٩]

٣-المدح:غرض المدح في ديوان الغزال قليل غير كثير،ولعل هذا يرجع إلى أنه لم يكن يسرف في مدح الأمراء الذين كانت له معهم علاقات حسنة ولا شك.وله قصيدة واحدة في مدح الأمير محمد بن عبد الرحمن،ذكرها صاحب"المطرب"،جاء فيها:

مَـــن مُبلِـــغٌ عَـــنّي إمـــامَ الهُـــدى الـــوارِث المجـــد أَبـــاً عَـــن أَبِ

إِنّي إِذا أَطنَـــــــــبَ مُدّاحَـــــــــهُ قَصَـــدتُ في القَـــولِ فَلَـــم أُطنَـــبِ

لا فَـــكَّ عَـــنّي اللَـــهُ إِن لَم تَكُـــن أَذكَرتَنـــا مِـــن عُمـــرَ الطَيـــبِ

وَأَصـــبَحَ المِشـــرِقُ مِـــن شَـــوقِهِ إِلَيـــكَ قَـــد حَـــنَّ إِلى المِغـــرِبِ

مِنـــبَرُهُ يَهتِـــفُ مِـــن وَجـــدِهِ إِلَيـــكَ بِالسَـــهلِ وَبِالمرحَـــبِ

وللقصيدة مناسبة وهي أن الشاعر كان قد طلب وظيفة من الأمير عبد الرحمن الأوسط ومدحه،فعينه عبد الرحمن خازنا للأعشار،لكنه باعها،فعاقبه عبد الرحمن بالسجن،فكتب الغزال هذه القصيدة يمدحه فيها ويعتذر إليه.ويذكره بأحسن الذكر فجعله إمام المسلمين،مستقيما قدوة لغيره،وله أصل كريم،ومحتد أصيل،ثم هو يشبه عمر في استقامته وعدله،وقد يكون التشبيه بعمر بن عبد العزيز أحد أجداد الأمير.والقصيدة متينة،سهلة الألفاظ،جيدة المعنى،بارعة التصوير.

٤- الهجاء(النقد الاجتماعي):

([٣٩]) السابق ص ٤٦.والنآد:الداهية.

يقول الدكتور الداية في مقدمة تحقيقه لديوان يحيى بن الحكم الغزال:"وقد أكثر ابن حيان فيما نقله من أشعاره وأخباره من التنبيه إلى أن الغزال باعتباره شاعرا هجَّاءً أو مقذع الهجاء.وأورد نبذا من أهاجي الغزال في الخصي المتنفِّذ (أي المستطيل بنفوذه) نصر، وفي المغني الشهير زرياب.وأورد ابن حيان وغيره من أصحاب كتب التراجم قطعا من شعر الغزال في هجاء القاضي يخامر،وفي هجاء بعض العدول ممن غفل عنهم القاضي معاذ الشعباني إلى غير هؤلاء.[٤٠]

كانت هذه هي المظنة في الشاعر يحيى الغزال أنه هجاء أو مقذع الهجاء.ويبدو أن ما نقله المحقق عن ابن حيان فيه تعميم للحكم على الغزال بأنه هجَّاء،وهذا التعميم يرفضه المحقق نفسه،ويسوق أسبابه الوجيهة لبطلان هذا التعميم،فالهجاء عند الغزال ليس منهجا يهتدي به،وليس أداة ابتزاز يجني من ورائها مكاسب دنيوية،والشاهد على ذلك ما جاء من هجاء الخصي(نصر) المتنفذ،فقد كان شخصا مسرفا في استغلال سلطته،متسلطا بها على رقاب الناس،وقد كان هجاء الغزال له لفاة ذكية جريئة كشفت عواره،وأظهرت سوءته،وقد تبين بعد ذلك صدق نظرة الغزال فيه،حيث مات مسموما بسم أعده لقتل الأمير عبد الرحمن،فأجبره الأمير على شربه،فشربه فمات.وأما هجاؤه المشهور في زرياب المغنِّي،فكان لما عُرف به زرياب من عُجب وتيهٍ وصلف.وما أظن الغزال في هجائه كان يعبِّر عن رأيه وحده،لاسيما وأنه لم يكن بين الرجلين شيء ذو حفيظة.

وفيما يخص هجاء الفقهاء والقضاة فيبرره محقق الديوان الدكتور الداية بقوله :"وأما الفقهاء فما تحس في حياته وأخباره فضية خاصة بهم.ولكن الغزال كان ينقم سوء استعمال المنصب أو كان ينطق بلسان الناس،أو جمهرتهم.ونجد في هجومه على بعض القضاة أو الفقهاء أو العدول(الأسباب الموجبة) للهجوم،هجاء أو تعريضا أو تحذيرا.لإإذا أخذنا بهذا التفسير استقام لنا أيضا أن نفهم،ونقدر موقفه من كل مستغل وجامع للمال(الحرام) وموقفه الزاهد في الدنيا..وبهذا فلا يمكن أن يكون الغزال هجَّاءً،بل كان هجاؤه في إطار النقد الاجتماعي الذي لم يستثن أحدا،ولم يكن أحد عنده فوق مستوى هذا النقد[٤١].ويمكن تسمية هذا

(٤٠)يحيى بن حكم الغزال:ديوانه ص١٢.

(٤١)يحيى بن حكم الغزال:ديوانه ص١٣ بتصرف يسير.

الهجاء بالنقد الاجتماعي،وهو يحتاج إلى بحث منفرد لدراسة مظاهره في ديوان يحي بن الحكم الغزال.ومما جاء في هجائه "يخامر":

فَقُلـــتُ لَـــهُ كَلَّفَتـــني فَـــوقَ صَـــنعَتي كَمـــا قَلَّـــدوا فَصـــلَ القَضـــاءِ يُخـــامِرا

فَأَصـــبَحَ قَـــد حـــارَت بِـــهِ طُـــرقُ الهَـــوى يُكابِـــدُ لُجَيّـــاً مِـــنَ البَحـــرِ زاخِـــرا

فَقُلـــتُ لَـــو اِســـتَعفَيتَ مِنهـــا فَقـــالَ لي سَأَفضَـــحُ مـــا قَـــد كـــانَ مِنـــكَ مُغـــايِرا

فَقُلـــتُ لَـــهُ رَأسَ الفُضـــوحِ إِقامَـــةً عَلَينـــا كَـــذا مِـــن غَـــيرِ عِلـــمٍ مُكـــابِرا

وَخَبطُـــكَ في ديـــنِ الإِلَـــهِ عَلـــى عَمـــىً خِباطَـــةِ سِـــكرانِ تَكَلَّـــمَ ســـادِرا

فَلَـــن تَحمِـــلَ الصـــخرَ الـــذُبابُ وَلَـــن تَـــرى الـــسُ ســـلاحِفُ يُـــزجينَ السَـــفينَ المَـــواخِرا [٤٢]

إن هذا لقاضٍ يعيش في خيال أشبه بالخبال،وهو عالم خيالا ولا حقيقة،يلتحف بثياب الجهل في حكمه،فسور القرآن تخفى عليه ولا يعلمها، ليس حفظا لأياتها،بل أسماء سورها التي لا تخفى على الغبي والنبيه.

إن المحور الرئيس لهذه القصيدة يدور حول جهل القاضي، يرسمه الشاعر بطريقة السخرية والهجاء لا تخلو من المبالغة ، فليس من المعقول أن القاضي لا يعرف أبسط سور القرآن،ويعرفها غلامه،والرسالة التي أراد الشاعر إيصالها إلى جهتين في المجتمع ، أولهما الجهة السلطوية المتمثلة للدولة وتنبيه الحاكم إلى هذا القاضي الجاهل لأنه يمثل سلطة الدولة،إذ إن تعرضه للقضاة في

(٤٢) السابق ص ٥٠.

عصره"دليل أكيد على رغبته في إصلاح شأن العامة،وأن مزحه الجدَّ بالفكاهة لا يضيره شيئا،بل إن ذلك يضفيعلى نقده الاجتماعي صبغة خاصة"[٤٣]

وانطلاقا من تأصيل مفهوم النقد الاجتماعي أو المجتمعي،الذي يهتم بإبراز وكشف عيوب في المجتمع ونقدها نقدا بناء من أجل إصلاحها والوصول إلى مجتمع سوي،والغزال أحد هؤلاء الذين وظَّفوا شعرهم لنقد عيوب مجتمعهم،يعالج شعره قضايا اجتماعية عامة مثل فقدان العدالة الاجتماعية بين الناس، كما عالج قضايا فردية خاصة ببعض الناس كالغرور والنمية والبخل،وتقد العامة والحاصة كالقضاة،والفقهاء،والسلطان وغيرهم:

لَقَـــــــد سَمِعـــــــتُ عَجيبـــــــاً مِـــــــن آبِـــــــداتِ يُخـــــــامِر
قَـــــــرا عَلَيـــــــهِ غُـــــــلامٌ طَـــــــهَ وَســـــــورَةَ غـــــــافِر
فَقـــــــالَ مَـــــــن قـــــــالَ هَـــــــذا هَـــــــذا لِعَمـــــــرِيَ شـــــــاعِر
أَرَدتُ صَـــــــفعَ قَفـــــــاهُ فَخِفـــــــتُ صَـــــــولَةَ جـــــــائِر
أَتَيـــــــتُ يَومـــــــاً بِتَـــــــيسٍ مُســـــــتَعبِراً مُتَحاسِـــــــر
فَقُلـــــــتُ قومـــــــوا اِذبَحـــــــوهُ فَقـــــــالَ إِنّي يُخـــــــامِر[٤٤]

ومن المظاهر الاجتماعية العامة التي عالجها شعره زواج القاصرات من رجل كبير السن ذي مال وجاهٍ..فاستخدم الغزال الأسلوب الحواري القصصي بين الفتاة وأبيها،فانظر ماذا قال:

وَخَيَّرَهـــــا أَبوهـــــا بَـــــينَ شَـــــيخٍ كَثـــــيرِ المـــــالِ أَو حَـــــدَثٍ فَقـــــيرِ

(٤٣) أسامة اختيار: بنية المشهد الحكائي في شعر يحي بن حكم الغزال.مجلة دمشق م٢٧،ع ٤٠٣لسنة ٢٠١١م. ص٢٤.
(٤٤) السابق ص ٥١.

فَقالَـــــت خُطَّتـــــا خَســـــفٍ وَمـــــا إِن أَرى مِـــــن حُظـــــوؤٍ لَلمُســـــتَخيرِ

وَلَكِـــــن إِن عَزَمـــــتَ فَكُـــــلُّ شَـــــيءٍ أَحَـــــبُّ إِلي مِـــــن وَجـــــهِ الكَبـــــيرِ

لِأَنَّ المِـــــرءَ بَعـــــدَ الفَقـــــرِ يُثـــــري وَهَـــــذا لا يَعـــــودُ إِشـــــلى صَـــــغيرِ[٤٥]

لقد عالج النص إحدى قضايا المجتمع الأندلسي خاصة،والعربي عامة، وهي إجبار تزويج القاصرات بالأغنياء الكبار سنًّا.والصورة المجتمعية لهذه الظاهرة صورة قاتمة إذ لا تستقيم مع الفتيات وهن الصغيرات الطامحات إلى شباب في مثل أعمارهن لتكتمل الصورة المنطقية.لكنّ الأمر لا يكون على هذه الحال بعد إرغامهن على الزواج بمن يكبرهن أعمارا، ويفوقهن سنا.والأسلوب الفني في الحوار اتخذ التقابل والتضاد سبيلا لإبراز الحد الفاصل بين عهد الشيخوخة المؤْذن بالأفول،وعهد الشبابالمستقبل للحياة،كذلك بين الفقر والغنى..كل هذا من أجل إبراز المفارقة التصويرية التي تجعل من هذا الأمر أمرا مرفوضا في الواقع والحيال.

الخاتمة والنتائج

وبعد..فيمكننا أن نسجل في نهاية البحث جملة من النتائج المستخلصة بإيجاز:

١ -إن الشاعر يحيى بن حكم الغزال هو أحد أهم شعراء عصر الإمارة الأموية في الأندلس.

٢ -عُرِف بالفطنة والذكاء،وحسن التندر،وسعة العلم.

٣ -نظم في أغراض الشعر المعروفة،وكان مجيدا فيها كلها،غير أنه اشتهر بالهجاء المقذع،حتى وصفه ابن حيان القرطبي فقال:"الغزال منتهك الأعراض ومخزي الرجال".

٤ -اتصل بالبيت الأموي في الأندلس،وأدرك خمسة من أمراء بني أمية فيها،وذاع صيته أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم المعروف بعبد الرحمن الأوسط.

٥ -يعبر شعره عن موقفه من الحياة،واستطاع أن يحكي فيه خلاصة تجربته التي امتدت به بين طرفي نشاط الصبا الذي دفَقَ في عروقه،ورزانة الشيخ الحكيم الذي أبى على الكبر أن يفارق طرفا من الدعابة الممزوجة بالألم والسخرية.ولا سيما أنه عُمِّر طويلا.

(٤٥) يحيى بن حكم الغزال:ديوانه ص ٦٣.

٦ -حاول من خلال شعره رصد التغيرات في المجتمع من حوله،فيلمح القارئ رغبته في أن يقصَّ عليه خبرته ومعرفته بالحياة،وذلك كله على شكل أسلوب فني قصصي ساخر في بعض أحيانه.

٧ -تأصيل مفهوم النقد الاجتماعي أو المجتمعي،الذي يهتم بإبراز وكشف عيوب في المجتمع ونقدها نقدا بناء من أجل إصلاحها والوصول إلى مجتمع سوي،والغزال أحد هؤلاء الذين وظَّفوا شعرهم لنقد عيوب مجتمعهم،يعالج شعره قضايا اجتماعية عامة مثل فقدان العدالة الاجتماعية بين الناس، كما عالج قضايا فردية خاصة ببعض الناس كالغرور والنمية والبخل،وتقد العامة والخاصة.

المصادر والمراجع

١ -ابن دحية:أبو الخطاب عمر بن الحسن الكلبي.المطرب من أشعار أهل المغرب،تحقيق إبراهيم الأبياري وآخرين.دار العلم.بيروت.١٩٥٥م.

٢ – ابن سعيد: أبو الحسن علي بن موسى المغربي.المغرب في حلى المغرب،تحقيق د.شوقي ضيف.دار المعارف.ط٣، ١٩٥٥م.

٣ -ابن عذاري:أبو عبد الله محمد المرَّاكشي. البيان المغرب في حلى أخبار الأندلس والمغرب،تحقيق كولاس وليفي بروفنسال ،دار الثقافة، بيروت،الطبعة الثالثة،١٩٨٣م.

٤ -البنداق:محمد صالح ،يحي بن الحكم أمير شعراء الأندلس في القرن الثالث الهجري،من مقدمة الكتاب للأستاذ الدكتور إحسان عباس،دار الآفاق الجديدة،بيروت.الطبعة الأولى،١٩٧٩م.

٥ -جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميدي.الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٦ -الحميدي:أبو عبد الله بن أبي نصر الأندلسي. جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس.تحقيق إبراهيم الأبياري.دار الكتاب المصري.١٩٨٩م.

٧ -الحميري: أبو عبدالله محمد بن عبدالمنعم،الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق:إحسام عباس،مؤسسة ناصر، بيروت،١٩٦٠م.

٨ -الحنبلي: عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري. شذرات الذهب في أخبار من ذهب ،تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط، دار بن كثير ، ١٤٠٦هـ ،دمشق.

٩ -الذهبي:شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام.تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري.دار الكتاب العربي. لبنان بيروت. ١٤٠٧هـ . ١٩٨٧م. الطبعة الأولى.

١٠ -الشافعي:أبو القاسم علي بن الحسن إبن هبة الله بن عبد الله. تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل.تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري. دار الفكر. بيروت ١٩٩٥.

١١ -عمر الدقاق،ملامح الشعر الأندلسي، دار الشرق العربي، بيروت.

١٢ -الغزال:يحيى بن حكم .ديوانه،جمعه،وحققه،وشرحه د.محمد رضوان الداية.دار الفكر المعاصر،بيروت،لبنان،دار الفكر،سورية،دمشق،١٩٩٦م.

١٣ -كحالة،عمر رضا،معجم المؤلفين،مؤسسة الرسالة،ط١٤١٤،١هـ،١٩٩٣م.

١٤ -المقري: أحمد بن محمد.نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب.دار الكتب.بيروت.١٩٩٥م.

الدوريات:

١ -أسامة اختيار: بنية المشهد الحكائي في شعر يحيى بن حكم الغزال.مجلة دمشق م٢٧،ع ٤٠٣لسنة ٢٠١١م.

٢ -سهر العامري،رحلة الغزال إلى الدنمارك-مجلة الحوار المتمدن، ،العدد٢٠٩٢-التاريخ٢٠/١١/٢٠٠٧.